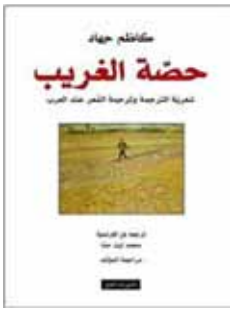

حصّة الغريب: شعرية الترجمة وترجمة الشعر عند العرب
المؤلف: كاظم جهاد

استطاع الشاعر والناقد كاظم جهاد أن يصنع الحدث مرّاتٍ عديدة في مجال الترجمة أيضاً، ليس أقلّها عند ترجمته آثار رامبو الشعريّة بعنفوان غير مسبوق، ممّا أجاز التطلّع إلى عملٍ نظريّ مساوٍ للممارسة. من ثمّ كان من الطبيعيّ أن ينتظر القرّاءُ دراسته عن الترجمة عند صدورها بالفرنسيّة سنة ٢٠٠٧ عن «آكت سود»، وأن يحتفوا بنسختها العربيّة عند صدورها أخيرًا بعنوان «حصّة الغريب، شعريّة الترجمة وترجمة الشعر عند العرب» (منشورات الجمل، ٢٠١١). استلهم كاظم جهاد عنوان كتابه من مصدرين: هولدرلين الذي زرع عبارة «امتحان الغريب» في سياق الشعر، وأنطوان برمان الذي أعاد تأثيل هذه العبارة في سياق الترجمة. ولعلّ محوريّة العنوان تبدو واضحة منذ قول الكاتب في المقدّمة: «إنّ تعبير حصّة الغريب، في عنوان كتابي، إنّما...يشير إلى مُنقلَبِ الآخر، (أي المحلّ الخاصّ الذي يصدر هو عنه)... وينبغي عليّ أن أترجمه دون تحريف أو تدجين أو إفقار» (ص١٦).

الغربة محنة. والنصُّ القادم من لغة إلى أخرى نصّ غريبٌ بالضرورة. من ثمّ تكون حصّة الغريب كنايةً عن حقّه. ومن حقّه علينا أن نخفّف عنه المحنة بأن نترجمه بما يكفي من «الحَرْفيّة» التي لا تعني «الترجمة كلمة بكلمة»، بل تعني احترام بنية النصّ والسعي إلى إعادة إنتاج انتظامات شكله. يقول الكاتب: «مع هذه الحرفيّة لا تزداد اللغة الهدف ومعها حساسيّةُ القارئ إلاّ انتعاشًا، مدفوعةً نحو مهارات وقُدرات للقول كامنة فيها ويجيء فعْلُ الترجمة لكي يحيّنها أو يفعّلها» (ص٢٣). هذه «الحَرْفيّةُ الجديدة» هي التي يدور عليها حجاجُ القسم الأوّل من الكتاب، المُخصّص لفلسفة الترجمة وشعريّتها كما استخلصهما الباحث بعد أن تتبّع جهود أعلام الفكر والترجمة الغربيّين تنظيرًا وممارسةً، خاصّة في مجال ترجمة الشعر، مسائلاً كتاباتهم مواجهًا بعضها ببعض: هايدغر، هولدرلين، ريكور، دريدا، بنيامين، كلوسوفسكي، ميشونيك، برمان، كازانوفا، ستينر، تشومسكي، والقائمة أطولُ بكثير.

شعريّةُ الترجمة (أو نظريّتها أو تحليليّتها) تعني لدى كاظم جهاد «رؤيةً للترجمة لا ترى فيها عمليّة ممكنة دائمًا، وإنّما استحالةً قابلةً للزحزحة، وممنوعًا ينبغي مناقشتُه». (ص٢٢) وتتأسّس هذه الشعريّة، وفق ما أثبته الباحث في القسم الأوّل من كتابه، على «التطلُّب» وعلى مواجهة موانع الترجمة ومعوّقاتها وحدودها ومستحيلاتها، بلا هوادة، بداية من المعجم والأسلوب والإيقاع والحوافّ الأنثروبولوجيّة والنفسيّة

والإيديولوجيّة واللسانيّة، وصولاً إلى عتبات النصّ وهوامشه. وهو تطلُّبٌ يتناغم مع «نظريّة أخلاقيّة عامّة للترجمة»، ظهرت ملامحها لدى الرومنطيقيّين الألمان. ومن أهداف هذه النظريّة الأخلاقيّة «التنبيه على أشكال التدجين والتطبيع التي ينبغي أن تتجنّبها الترجمة، ورسم حدود فاصلة بين حريّة المترجم وسيادة النصّ» (ص١٤٣).

القسم الثاني يتابعُ مراحل حركة الترجمة التي عرفتها الثقافة العربيّة، محلّلاً أسباب قلّة ترجمة الشعر في العصر الوسيط بالمقارنة مع تزايد ترجمة الآثار الشعريّة في العصر الحديث. وفيه حوار عميق مع الجاحظ والتوحيديّ والجرجانيّ وابن إسحق وغيرهم، ثمّ مع روّاد النهضة وأعلام العصر الحديث مثل الشدياق والكرمليّ وجورجي زيدان ويعقوب صرّوف، دون أن ننسى الطهطاوي والمنفلوطي وطه حسين، وصولاً إلى وديع البستانيّ وجهود جماعة أبولو ومجلّة شعر وغيرهم. وهي جهود «كان لها فضلُ إطلاع القارئ العربيّ على التطوّر الذي شهده الشعر في الثقافات الأجنبيّة، بَيْدَ أنّ ما يمكن أن يُوصَف منها بالروائع يظلّ متّسمًا بالندرة» (ص٢١٨).

أمّا القسم الثالث فهو مُخصّص لدراسة عدد من الترجمات العربيّة للأشعار الأوروبيّة دراسةً مقارنةً ونقديّة تفيد من الجهاز النظريّ السابق لتشخيص مآزق الترجمة ومضايقها وأخطائها واقتراح حلول من شأنها «أن توسّع مجال الإمكان أمام الفعل الترجميّ» عن طريق الإفادة من تجارب الترجمة التي مارسها شعراء وكتّاب نذكر من بينهم عبد الرحمان بدوي وسعدي يوسف وخليل الخوري ومحسن بن حميدة وجبرا إبراهيم جبرا وفؤاد رفقة وأدونيس وغيرهم.

وإذ يُعمِلُ الباحث مبضعه النقديّ في هذه التجارب بصرامة، فإنّه لا يقوم بذلك هجومًا عليها بقدر ما يقوم به دفاعًا عن «حصّة الغريب»، استئناسًا بقول أنطوان برمان: «أسمّي ترجمةً سيّئة كلَّ ترجمة تعملُ، بتعلّة قابليّة العبارة أو عدم قابليّتها للنقل، على نفي غرابة العمل الغريب نفيًا مُطلقًا» (ص١٢٢).

تعود بي الفقرة السابقة إلى عبارة «نصيب الملائكة» التي ذكّرني بها عنوان الكتاب في بداية هذه الورقة. ولعلّ الصلة بين العبارتين قد اتّضحت بعض الشيء من خلال وضع اليد على فكرة محوريّة تنتظم أطروحة الكاتب الرئيسيّة، وتتمثّل في كون الترجمة زحزحةً للمستحيل، محاولةً لا مناص منها للسيطرة على ما لا سيطرة عليه، بدونها تصبح الترجمة خيانةً بالمعنى المبتذل للكلمة، لا علاقة لها بالخيانة بالمعنى الإبداعيّ. ولعلّ ما يقوله الربط بين العبارتين في سياق هذه الأطروحة الخصبة بما تطرحه من أسئلة والمخصبة بما تفتحه من آفاق: إنّ الغربة هي الأصل، وإنّ الغريب ليس المُترجَم وحده (بفتح الجيم)، بل هو المُترجِمُ أيضاً (بكسْرها).

ثمّة شيء يتبخّر من النصّ المُترجَم وثمّة شيء يتبخّر من لغة الترجمة، تمامًا كما يتبخّر «نصيب الملائكة»، وعند نقطة اللقاء يحدث «السحر». فإذا وفاءُ الترجمة و«حَرْفِيّتُها» في تلك المنزلة بين المنزلتين، بين ما يتبقّى وما يتبخّر. أو لأقل: بين ما يتبقّى بفضل ما يتبخّر.

الطريف هنا أنّ نجاح الترجمة مرتبط بمقدار تخليص النصّ الغريب من غربته دون تجريده منها تمامًا، وبمقدار

تنازُل لغة الاستقبال عن جزء من هويّتها دون التفريط فيها تمامًا. هكذا يتصرّف النصّ الغريب كأنّه «مُقيمٌ» فعلاً، ويتصرّف النصّ المُقِيمُ كأنّه «وافدٌ» بعض الشيء، دون أن يفقد أيٌّ منهما غرابته وغُربته. وكم هي أساسيّةٌ أداة التشبيه هنا. وكم تكتسب عبارة «كأنّه» من أهميّةٍ في هذا السياق.

هذا الجزء المتبخّر هو الذي يكتسب بفضله «المنتوجُ» هويّته الحقيقيّة، نصًّا كان أم مخزونًا من الكونياك. وإذا كان هذا التبخُّر يُنتِج في مجال المشروبات الروحيّة نوعًا من الفطريّات المجهريّة التي تغطّي الجدران وتصبغ حجارتها بالسّواد (وهو ما كان يرشد السلطات في القديم إلى محلاّت الترقيد السريّة)، فإنّه يُنتِج في مجال الترجمة شيئًا شبيها بذلك، يتمثّل في تلك الآثار التي تنشأ عن حوار الأنا مع الآخر الغريب. ذلك الحوار الذي يقول كاظم جهاد إنّه «يُعْلِمُني عن نفسي مثلما يُعلِمُني عنه» (ص١٦).

بقيت كلمةٌ لابدّ منها في شأن عبور الكتاب إلى لغة الضاد. فقد صدرت نسخته العربيّة بإمضاء أستاذ الفلسفة والباحث المغربيّ محمد آيت حنّا، مع تولّي المؤلّف المراجعة. وليس من شكّ في أنّ عرض كتاب مُتَرجَم يُعنَى بالترجمة يتطلّبُ بالضرورة انتباهًا إلى عملِ المُترجِم. وأعترف بأنّي ما أن علمتُ بصدور النسخة العربيّة حتى طلبتُها وكلّي فضول إلى معرفة نتيجة الرهان. فليس من رهان أكبر من ترجمة عملٍ بمثل هذه الكثافة لمؤلّف يمارس الترجمة ويحذق اللغتين. وأزعمُ بعد قراءة الكتاب أنّ المترجم كسبَ الرهان حقًّا وأحسن ضيافة عمل كاظم جهاد في عربيّة دقيقة سلسة لا عداوة فيها بين الطاقة التخييليّة والشحنة الفكريّة ولا خصومة فيها بين خصوبة الإيحاء وصرامة الأداء.

لذلك لا أريد أن أختم هذا العرض السريع دون تحيّة المترجم. علمًا بأنّ حضور المؤلّف واستعداده للمساعدة أو المراجعة ليس نعمةً بالضرورة، خاصّةً إذا كان العملُ لكاتبٍ مُترجِم شديد القسوة على الآخرين قسوتَهُ على نفسه، ترقَى الترجمة لديه إلى مستوى الإبداع والتحقيق في الوقت نفسه، فإذا هو ينحت ويوقّع ويمحّص ويُطارد المعادِلات والنظائر ولا يطمئنّ إلى خيارٍ إلاّ أعاد فيه النظر وامتحنه إلى ما لا نهاية، في سبيل ذلكَ المستحيل الذي لا مناص من طلبه وكأنّه المُمكن. وهل الترجمة غير ذلك؟

ليس من سبيل إلى إيفاء العمل حقَّهُ في مثل هذه العجالة. ومُجمَلُ القول إنّ «حصّة الغريب» مؤلّف موسوعيّ بكلّ ما تعنيه العبارة من شموليّة وتخصيص وبكلّ ما تتطلّبه المؤلّفات الحقيقيّة من اقتراحات فكريّة وحدوس طريفة وابتكارات شخصيّة مبنيّة على البرهنة والحجاج. وهو إلى ذلك كتابٌ «مرجعٌ» شبيهٌ بأوركسترا تتناغم فيها العلوم والنصوص والأزمنة، لم يتحسّب مؤلّفُه من تأليفه برؤية المغامر المبدع ولم يدّخر جهدًا في تدقيقه بصرامة الباحث العالم، فإذا نحنُ أمام أثرٍ تجتمع فيه موهبةُ الشاعر وأريحيّة المترجم وفطنةُ المفكّر وثقافةُ المتخصّص الذي يطرح سؤال الترجمة في ضوء كلّ ما تطرحه العلوم الإنسانيّة من أسئلة، بدايةً من علم الإناسة وعلم النفس وصولاً إلى تاريخ السياسة والأدب.

قراءة: آدم فتحي